العلاقات التونسية الجزائرية 1830/1954 جوانب من التواصل النضالي

أ . سعيد جلاوي*

العلاقة بين تونس والجزائر عريقة في التاريخ ولا يمكن أن نتحدث عن سائر أطوارها وأثارها ونتائجها بالدقة التي ينبغي توخيها في هذا المقام لان البحث في جذورها وأعماقها يحتاج إلى إسهاب من شانه أن يتطلب المجلدات الضخمة وحسبنا في هذه العجالة أن نعرج على بعض جوانب من التواصل بين القطرين والبحث عن مدى استمراره في الفترة الاستعمارية وما نتج عنه لنستخرج العبرة ونجدد الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

هذا التواصل بين الشعبين التونسي والجزائري لم يكن وليد ظروف عابرة بل يعود إلى فجر التاريخ ، فقد فرضته وحدة الجغرافيا ، وعززه التاريخ المشترك ، ووفر له دخول الإسلام إلى المنطقة أسباب الاستمرار ، كما لم تفتأ عوامل مختلفة كالكيانات السياسية المتعاقبة والوشائج الاجتماعية المتداخلة وكثافة التعامل التجاري . . . تزيده متانة إلى أن ظهرت الأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر والتي انتهت باحتلال البلدين ، وكانت الجزائر أول ضحية لهذا الاحتلال ، عام 1830 . ثم تونس 1881 . فإلى أي مدى تمكن هذا الأخير من شل هذا التواصل النضالي بين الشعبين وكيف كانت مظاهره وأشكاله؟ .

بدخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر هب الشعب الجزائري للمقاومة المسلحة في مختلف أنحاء القطر وعلى فترات متتالية بداية من مقاومة الأمير عبد القادر1832الى انتفاضة الاوراس 1916 . . . فتح الشعب التونسي بلاده للثوار الجزائريين وقدم لهم كل ما أمكنه من دعم رغم معارضة حكامه أحيانا . فعلى سبيل المثال لا الحصر لجأ إلى تونس خلال مقاومة الأمير عبد القادر واحمد باي في الثلاثينات والأربعينات من القرن 19 عدد كبير من المقاومين كالشيخ « محمد الحسناوي »[1]. . . وكما نزح الثوار الذين نجوا من الاستعمار بعد تخريب واحة الزعاطشة سنة 1849 إلى إقليم الجريد التونسي فآواهم السكان وقدموا لهم العون والمساعدة ، ونفس الشيء حظي به الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه وعندما جاء الدور على

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

(1) محمد الحسناوي : من قادة المقاومة الوطنية على الحدود الجزائرية (الاوراس إلى الكاف) في الأربعينات .

تونس ووقعت هي الأخرى فريسة للاستعمار الفرنسي وقف الجزائريون بمختلف فئاتهم ضد هذا الاحتلال ، لاسيما وأنهم كانوا يعتبرون تونس وطنهم الثاني الذي يلتجئون إليه عندما يطاردهم جيش الاحتلال ، فأعلنوا غضبهم ، وحملوا السلاح مع إخوانهم التونسيين في مختلف جبهات القتال وعلى طول منطقة الحدود ، وفي أعماق البلاد التونسية بل وداخل الجزائر نفسها قصد إشغال جزء من القوات الفرنسية وتمكين إخوانهم التونسيين من الكر والفر [1] ففي وشتاته والهمامة والجريد ـ مثلاـ نظم المهاجرون الجزائريون حركة جهاد واسعة مع إخوانهم التونسيين ، واقتنوا الأسلحة والبارود والدواب ولوازم الحرب المختلفة ووظفوها في حركة الجهاد والمقاومة في البلدين وخلقوا جوا من الرعب للسلطات الاستعمارية[2] .

غير أن هذه الأخيرة ومع مرور الزمن تمكنت من التغلب على هذه الثورات وإخمادها بالقوة مما اضطر الشعبين التونسي والجزائري إلى البحث عن أسلوب نضال جديد أكثر تلاؤما مع الظروف المستجدة ، فكان الكفاح الثقافي والسياسي الذي أخذ منذ مطلع القرن 20 يفرض حضوره أكثر فأكثر ، خاصة وأن الاستعمار الفرنسي لم يكتف باغتصاب الأرض والاستحواذ على خيراتها وإنما شرع أيضا في فصل الشعب عن أصوله الحضارية بالقضاء التدريجي على لغته وثقافته والاستعاضة عنها بنشر ثقافة المستعمر وفرض لغته[3] .

وفي هذا المجال ، كان وضع تونس أفضل بكثير من وضع جارتها الجزائر التي تعرضت لمحنة ثقافية بالغة القسوة ، إذ فكك الاستعمار كل مؤسساتها العلمية والثقافية ولم يبق أمام الجزائريين إلا الهجرة إلى الخارج لطلب العلم ، فكانت تونس ـ بطبيعة الحالـ قبلتهم الأولى ، فأخذ جامع الزيتونة يستقبل منذ مطلع القرن 20م طلاب العلم الوافدين من الجزائر وفي طليعتهم العلامة « عبد الحميد إبن باديس »[4] الذي وفد على تونس سنة 1908 ولما رجع إلى الجزائر في 1912 نذر حياته وسخر علمه للدفاع عن وطنه وهويته العربية الإسلامية ، فتفرغ للتدريس تطوعا بجوامع ومساجد قسنطينة ، وجمع حوله ثلة من العلماء . . . بيد انه لم يقنع بذلك حيث راح يجند كل إمكانياته لوصل اللحمة بين الجزائريين

(1) يحي بوعزيز ، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص263 .
(2) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص263 .
(3) نفس المرجع ، ص 265 .
(4) عبد الحميد ابن باديس (1889 / 1940) من رواد النهضة الإصلاحية في الجزائر صاحب جريدة المنتقد 1925 والشهاب مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 .

وجامع الزيتونة؛ فكان يطوف قرى وأرياف الجزائر حاثا الأهالي على إرسال أبنائهم إلى جامع الزيتونة بعد تلقي المرحلة الأولى من التعليم بالجزائر . وبرعاية وتشجيع منه وصلت إلى تونس أول بعثة تعليمية سنة 1913 أي بعد عودته إلى الجزائر بسنة واحدة ، إلا أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تمكن أولئك الطلبة من البقاء في تونس ، فاضطروا للعودة إلى بلادهم حتى وضعت الحرب أوزارها ، وعندها استأنفت البعثات طريقها إلى تونس ، وتوالت تباعا في سلسلة متصلة طيلة نصف قرن؛ من 1913 إلى 1962 .

وتدعمت مساعي ابن باديس في هذا المضمار بجهود نخبة من أفاضل بني ميزاب الذين دفعهم الحرص والغيرة على اللغة والدين إلى إنشاء مدرسة ابتدائية على النمط العصري من ريع تبرعاتهم وأسموها المدرسة الصديقية ، فما كان من السلطات الاستعمارية إلا أن عطلتها وأغلقت أبوابها فدفعهم التحدي إلى إرسال أبنائهم إلى تونس للتعلم في مدارسها ومعاهدها وبخاصة جامع الزيتونة وأشرف على أول بعثة من هذا النوع في ماي 1914 عالمان من بني ميزاب هما المصلح الشيخ « إبراهيم بن الحاج عيسى »[1] والحاج عمر العنق . وحظيت البعثة المذكورة بالرعاية من تجار بني ميزاب المقيمين في تونس الذين جمعوا لها الأموال وأجروا لها دارا للإقامة أصبحت فيما بعد (دار البعثة) ، توفر للقادمين المأوى والطعام والإشراف والمتابعة .

وسرعان ما أتت هذه الجهود ثمارها بعد سنوات قليلة حيث تخرجت بداية من سنة 1924 أول دفعة من هذه البعثات وأفرزت ثلة من خيرة علماء الجزائر ومصلحيها ومفكريها من أمثال « محمد السعيد الزاهري »[2] ، و« صالح بن يحي »[3] و« مبارك الميلي »[4] و« أحمد توفيق المدني »[5] . . . الذين عادوا إلى

(1) هو أبو اليقظان : (1883 ـ 1973) ولد بمدينة (القرارة) جنوب الجزائر ، درس بالزيتونة بداية من سنة 1912 ، عرف بنشاطه الوطني والصحفي على الخصوص ، اصدر ثمانية صحف بين 1926و 1939 ، كما كان له مساهمات متعددة في الصحف التونسية ، وتألق بمقالاته الوطنية وقصائده الحماسية .

(2) محمد السعيد الزاهري : (1899 ـ 1965) من مواليد بسكرة جنوب شرق الجزائر ، درس بقريته ثم بمدينة قسنطينة على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس ثم درس بالزيتونة ، من ابرز الشعراء وأكثرهم وطنية في العشرينات . أنشا عددا من الصحف منها (الجزائر) و(الوفاق) .

(3) صالح بن يحي : من مواليد وادي ميزاب ، من الوطنيين البارزين الذين شاركوا في (الحزب الدستوري التونسي) وتعرضوا بسبب مواقفهم إلى السجن .

(4) مبارك الميلي : توفي سنة 1945 من رجال الإصلاح المعروفين ، درسي بالزيتونة وتخرج منها سنة 1924 ، من أعضاء ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ومن مؤرخي الجزائر المعروفين .

(5) توفيق المدني : (1966 1984) من عائلة جزائرية هاجرت إلى تونس عام 1870 درس بالزيتونة شارك في الحزب الدستوري التونسي سنة 1920 تعرض للسجن م للنفي عرف بمقالاته المميزة ومؤلفاته « حياة كفاح ».

الجزائر ووظفوا علمهم وجهودهم في النضال العلمي والتربوي ، والكفاح الثقافي بصفة عامة . وتتابعت بعد ذلك أفواج المتخرجين الذين لعبوا دورا بارزا في مختلف مستويات التدريس والإنتاج الأدبي والفكري ، والكتابات الصحافية والبحث العلمي ، وكان لهم حضور مكثف في الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائرلا سيما بعد الاستقلال أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله وصالح الخرفي و« عبد الله الركيبي » و« أبو العيد دودو » و« الجنيدي الخليفة » و« الأخضر السائحي » وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار فضلا عن الآلاف من ذوي الثقافات والاختصاصات والميول الأخرى من مهندسين وأطباء وقادة عسكريين ممن تكونوا في رحاب الزيتونية وكانوا من خيرة خريجيها ، وأدوا رسالتها الحضارية على أكمل وجه .

وتتضمن شهادات الكثير من هؤلاء إقرارا بما لجامع الزيتونة من إسهام فعال في الإبقاء على ثقافة الجزائر الأصيلة وحمايتها من عبث المستعمر واستهتاره ويقول الشيخ السعيد الزهاري أنا مدين لكلية جامع الزيتونة . . . وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني هذه أيضا مدينة لجامع الزيتونة ، فكثيرا من رجال هذه الحركة الإصلاحية قد تخرجوا من الزيتونة وأحرزوا على شهاداتها العلمية « . وذات الحقيقة يؤكدها الشاعر صالح الخرفي احد خريجي الزيتونة حيث كتب يقول « لو أعطينا الأولوية للبيئة العلمية التي تحرجت فيها الطليعة لجاءت تونس في الدرجة الأولى ، ففي (جامع الزيتونة) درس وتخرج أغلب شعرائنا الأوائل ولم يكن يكتفي الشاعرالجزائري في تونس بدور الطالب الذي يتلقى الدرس ثم يتأبط كتبه صوب مسكنه ، وإنما يساهم مساهمة فعالة فيما كانت تزخر به تونس . . . من نشاط فكري وديني وسياسي »[1] .

ولم يقتصر دور جامع الزيتونة على تكوين الطلبة الجزائريين في رحابها بل تعدى ذلك إلى توفير الحماية القانونية والأدبية لمعاهد ومدارس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وهذا ضمن خطة ذكية ترمي إلى الحيلولة دون غلق الاستعمار هذه المعاهد التي كانت تشكل في نظره خطرا مستقبليا ، وهو ما أدى إلى مشاورات بين علماء الزيتونة وعلماء الجزائر أفضت إلى أن تبسط الزيتونة رعايتها على معاهد جمعية العلماء ، وبالإضافة إلى مدها بالمناهج والمراجع ، والإشراف في نهاية كل موسم دراسي على امتحاناتها ، ومنح طلابها الشهادات

(1) خرفي صالح ، شعراء من الجزائر ، (معهد البحوث والدراسات العربية 1969 ، ج1) ، ص30 .

العلمية المعروفة بالجامعة الزيتونية .

لم يقتصر التلاحم الثقافي بين لقطرين على مجال التعليم وإنما شمل مجالات أخرى لا تقل أهمية عنه ، كالمجال الإعلامي . حيث فتحت الصحف التونسية أبوابها على مصراعيها أمام الأقلام لجزائرية ، وهو ما يجسده العدد الكبير من مقالات الجزائريين المنشورة في الصحف التونسية ، وذلك منذ مطلع القرن 20 حتى 1962 . مثل : التقدم ، ومرشد الأمة 1906 ، لمنير 1907 ، المشير 1911 ، العصر الجديد ، الوزير ولسان الشعب 1920 ، النهضة 1924 ، العالم الأدبي 1929 ، الزمان 1931 ، العمل 1934 ، الوطن والبوق ، الزيتونة 1936 ، تونس ، المباحث ، صبرة 1937 ، الأسبوع 1945 ، الصباح 1950 ، والندوة 1953 ، الفكر 1955 ، الإذاعة ، و1962[1] .

وأول من دشن تلك الرابطة القلمية بين الجزائريين والصحف التونسية هو « عمر راسم »[2] بمقالة نشرها سنة 1907 في جريدة التقدم التونسية . وحذا حذوه بعد ذلك كثيرون نذكر منهم « عمر بن قدور »[3] و« حمزة بوكوشة »[4] و« الطيب العقبي »[5] و« محمد العيد الخليفة » . . . إلى درجة أن أصبحت الصحف التونسية تتلقى المراسلات من مختلف جهات القطر الجزائري وتطورت في العديد من الحالات الصلة بين الصحافة التونسية والكتاب الجزائريين إلى علاقات ود وصداقة ، كتلك العلاقة التي ربطت عمر بن قدور والشيخ الطيب إبن عيسى صاحب جريدة « المشير » والتي نجد إشارات لها في بعض رسائل عمر أبن قدور ، وكذا الصلة التي جمعت الطيب العقبي واحمد « حسين لمهيري »[6]

(1) صالح الجابري ، الأدب الجزائري في تونس1900 / 1962 ، (تونس : بيت الحكمة ، 1991م ج1) ، ص 16 .

(2) عمر راسم : (1884 ـ 1959) من الكتاب الجزائريين البارزين في مطلع ق 20 ، عرف بآثاره الإصلاحية شارك في عدد من الصف التونسية ، انشأ مجلة « الجزائر » 1808 وجريدة « والقفار » سنة 1913.

(3) عمر بن قدور : (1886 ـ 1930) من ابرز المناضلين الجزائريين في مطلع القرن قلما وفكرا وعملا ، تعلم بالجزائر وتونس ومصر وكانت له مشاركات واسعة في عدد من الصحف التي صدرت بالأستانة ، تونس ، مصر .

(4) حمزة بوكوشة : مواليد ـ وادي سوف ـ جنوب الجزائر ، درس بالزيتونة وتخرج منها سنة 1930نشر قصائد عديدة بجريدتي ـ الوزير التونسية . ساهم في الحركة الوطنية بمقالاته الإصلاحية التي نشرتبجريدي الشهاب والبصائر في الثلاثينات ، يعمل بسلك القضاء في الجزائر .

(5) الطيب العقبي : (1880ـ 1960) من مواليد سيدي عقبة هاجر مع أسرته إلى الحجاز حيث درسثم عاد الى الجزائر سنة 1920 ، له نشاط متميز في مجال النضال الوطني والصحفي وكانت المراسلات مع جريدة ـ العصر الجديد ـ التونسية في سنة 1922.

(6) حسين لمهيري : من مواليد الجنوب التونسي ، درس بالزيتونة له مواقف نضالية من الاستعماراصدر جريدة (العصر الجديد) سنة 1920 التي صودرت سنة 1924 وأعيد إصدارها سنة 1936 كتب فيها الطيب العقبي.

صاحب جريدة «العصر الجديد» التي نجد لها صدى في عبارات الود التي كانت تزخر بها المراسلات بين الطرفين .

ولعل أهم الأسباب التي يفسر متانة تلك الأواصر وديمومتها ، انتشار الصحف التونسية في العديد من مناطق الجزائر واتساع مقروئيتها ويؤكد ذلك الشاعر التونسي «سعيد أبو بكر»[1] الذي زار لجزائر سنة 1927 وسجل لنا تواجد الصحف التونسية بقوة في أكشاك المدن الجزائرية والإقبال المنقطع النظير على مطالعتها .

ولا يجب أن يفهم مما سبق أن العلاقة بين أبناء القطرين في المجال الصحفي كانت ذات اتجاه واحد وإنما كانت إسهاما متبادلا ، وهو ما يتجلى من خلال مقالات التونسيين أمثال «البشير الفورتي»[2] و«حسين الجزيري»[3] و«الطيب بن عيسى»[4] و«محمد الفائز»[5] و«جلال الدين النقاش»[6] «محي الدين القليبي» و«عثمان الكعاك» و«محمود بورقيبة»[7] و«محمد المهدي بن ناصر» . . . الخ المنشورة في الصحف والمجلات الجزائرية بالأخص الفاروق 1915 والشهاب 1925 وصدى الصحراء 1925 والإصلاح 1927 وادي ميزاب 1929 والبصائر 1936 .

(1) سعيد أبو بكر : (1984/1899) من مواليد بلدة المكنين بالساحل التونسي ، زاول تعليما بسيطا في قريته وشارك في تحرير عدد من الصحف ، كما اصدر مجلةـ العالم ـ وتونس المصورة ـ ، له ديوانان هما ـ السعيديات ـ والزهرات ـ

(2) البشير الفورتي : (1882ـ 1954) من أوائل الصحفيين التونسيين درس بالزيتونة والخلدونية اصدر جريدة التقدم سنة 1907 وولد البلاد 1910 عمل في الطباعة والكتابة وفي الصحف والمجلات كالمنار وتونس والمذياع والزيتونية واهتم كذلك بتراجم بعض الصحفيين والأعلام التونسيين عين كرئيس تحرير مجلة الهدي سنة 1952 وفي الأخير عكف على تنشيط حركة النشر بإصدار عدة مؤلفات .

(3) حسين الجزيري : (1888ـ 1974) من عائلة جزائرية درس بالزيتونة ساهم في تحرير العديد من الجرائد التونسية والجزائرية كاللواء وراسل جريدة الفاروق واصدر جريدة النديم سنة 1921 وفية للحزب الدستوري واستمر بعد ح ع2 في العمل الصحفي وله مقالات ومحاضرات ومؤلفات روائية وإذاعية حتى توفي سنة . 1974.

(4) الطيب بن عيسى القرواوي : (1885 /1965) من أصل جزائري ، ولد بتونس ، وتعلم بالزيتونة وساهم منذ نشأته في تحرير عدد من صحف مطلع القرن ، في كل من تونس والجزائر ، كما انشأ في سنة 1912 «المشير» التي حولها في سنة 1920 إلى جريدة الوزير .

(5) محمد الفائز : (1902ـ 1953) من أعلام تونس درس في الزيتونة ساهم في تحرير جريدة القيروان ومجلة مكارم الأخلاق والثرايا.

(6) جلال الدين النقاش : (1913ـ 1989) كاتب تونسي درس بالزيتونة ساهم في الحركة المسرحية والفنية والشعرية نشر مقالاته وأشعاره في عدة صحف : الوزير ، النهضة ، العالم الادبي ، الزهرة ، الصباح ، العمل . . .

(7) محمود بورقيبة : (1882ـ 1928) درس بالزيتونة ساهم في حركة الشباب التونسي وفي جمعية الآداب اصدر جريدة اللسان ساهم في تحرير عدة جرائد كالمبشر والنهضة . . الخ.

لقد كان لهذا التلاقح الثقافي بين القطرين فضل كبير في ظهور بوادر نهضة أدبية وفكرية في الجزائر تجلت في الانتاجات الفكرية للعديد من المثقفين الجزائريين التي أخذ سناها يخترق الظلام الدامس الذي فرضه الاستعمار . بيد أنها لم تكن لتجد طريقها إلى القراء في معظم الأحايين لولا دور النشر التونسية التي تبنت طبع ونشر ذلك الإنتاج وعلى سبيل المثال كتاب «بذور الحياة» لرمضان حمود وديوان الصحفي لإبراهيم الحاج عيسى المعروف بابي اليقظان ، وشعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي ، و«الطالب المنكوب»[1] لعبد المجيد الشافعي و«نفوس ثائرة» لعبد الله الركيبي و«الأشعة السبع»[2] لعبد الحميد بن هدوقة و«دخان من قلبي»[3] للطاهر وطار وسائر المطبوعات الجزائرية التي ظهرت في تونس خلال النصف الأول من القرن العشرين .

وانعكس هذا التلاحم بين مثقفي القطرين في مرآة النشاط السياسي في صورة نضال مشترك ضد الاستعمار الفرنسي ، والتي ترجع بداياته إلى سنة 1920 ، تاريخ تأسيس أول حزب وطني تونسي وهو الحزب الدستوري الحر ، الذي ضم في هيئته القيادية الأولى ثلة من التونسيين والجزائريين الذين اقسموا على المصحف الشريف وفي سرية تامة ، «كما يرد ذلك الشيخ أبو اليقضان في مذكراته» على أن يعملوا من اجل تحرير المغرب العربي بأسره . ومن أبرز أولئك الجزائريين زعيم الحزب ذاته «عبد العزيز الثعالبي»[4] و«إبراهيم الطفيش» و«صالح بن يحي» و«أبو اليقظان» و«أحمد توفيق المدني» و«عبد الرحمان اليعلاوي»[5] و«الطيب بن عيسى» .

و لم يكن إسهام هؤلاء في نشاط هذا الحزب إسهاما عابرا وإنما كانوا أعضاء في لجانه العليا وهيئاته القيادية ، وبذلوا جهودا كبيرة في إرساء أركانه ومد قواعده .

كما لعب التجار الجزائريون وبالأخص المنحدرين من وادي ميزاب دورا

(1) الطالب المنكوب : من طلائع الرواية الجزائرية ، صدرت سنة 1951 وطبعت بمطبعة الشريف ، دار الكتب العربية بتونس .
(2) صدرت عن الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس سنة 1962 .
(3) صدرت عن الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس سنة 1962 .
(4) عبد العزيز الثعالبي : (1876 / 1944) من أصل جزائري درس في تونس . ونال الشهادة الابتدائية التحق التحق بجامع الزيتونة وتابع دراساته العليا في المدرسة الخلدونية أسس الحزب الدستوري القديم وكتب في الصحف داعيا إلى الاستقلال والحرية . ثم اصدر صحف «لمنتظر» و«المبشر».
(5) عبد الرحمان اليعلاوي : من أصل جزائري انخرط مع الرعيل الأول في الحزب الدستوري التونسي مارس مارس نشاطا سياسيا وصحفيا أبعده الاستعمار إلى الجزائر سنة 1925 ساهم في الثورة الجزائرية كمسؤول مالي.

رئيسيا في دعم الحزب المذكور ماليا كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

ونتيجة لهذا التضامن السياسي مع إخوانهم التونسيين تعرض الجزائريون لمختلف صنوف التنكيل والقمع ثم الإقصاء عن البلد الذي ترعرع فيه بعضهم وتعلم البعض الأخر بدعوى أن النشاط السياسي محرم على الجزائري سواء كان جزائري الجنسية أو جزائري الأصل ، وقد نال هذا الإبعاد ثلة من الوطنيين . كإبعاد الشيخ « الطفيش » إلى القاهرة سنة 1923 ونفي كل من توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي وصالح بن يحي إلى الجزائر .

غير أن ذلك لم يفلح في فصم العلاقة القوية بين أبناء القطرين وهو ما يتجلى في استمرار نضال الجزائريين في الحزب الدستوري الجديد وما إن ظهر في 2 مارس 1934 واختار قيادة شابة جديدة من وجوهها البارزة كالحبيب بورقيبة ومحمد الماطري حتى هرع نفر من الجزائريين يجددون صلاتهم بالحزب ، وينخرطون في عضويته ويتولون مهام إعلامية وتنظيمية في إدارته ، حتى بلغ في صفوفه العشرات بل الميئات منهم الشاعر « محمد العيد الجباري »[1] الذي سجن من سنة 1934 إلى 1939 بسبب تأييده للحزب وكذا « محمد لعريبي »[2] الذي أوقف سنة 1939 لذات السبب .

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ النضال الوطني ضد الاستعمار في القطرين يتجذر أكثر فأكثر وبالأخص في الجزائر التي شرعت في الإعداد للكفاح المسلح حيث أسس حزب الشعب الجزائري ابتداء من فيفري 1947م تنظيما سريا شبه عسكري خصيصا لهذا الغرض .

وانطلاقا من قناعة راسخة بان نجاح الكفاح التحرري على مستوى المغرب العربي مرتبط بدخول المعركة ضد الاستعمار في جبهة موحدة ، فقد سعى مسؤولو الحركة الوطنية في الجزائر إلى إقناع نظرائهم التونسيين بإنشاء جهاز عسكري مشابه للمنظمة الخاصة لحزب الشعب وتنسيق عملية التحضير للثورة .

وفي هذا الإطار تمت عدة زيارات لقادة جزائريين إلى تونس على غرار زيارة محمد بوضياف مع مجموعة من المناضلين منهم محمد عصامي وحامد روابحية سنة

(1) محمد العيد الجباري : (1911ـ 1942) أصيل الجزائر ساهم في الحزب الدستوري التونسي ـ منذ سنة وتعرض للسجن والإبعاد 07 مرات نشط في الصحافة التونسية له العديد من الأشعار والمؤلفات .

(2) حمد لعريبي : (1946 / 1971) أصيل مدينة ـ تيهرت ـ بالجزائر وفد منها على تونس . درس بالزيتونة وساهم في تحرير عدد من الصحف الصادرة في الثلاثينات مثل (الشباب) و(السردوك) و(صبره) و(تونس) و(الزمان) ونشر بها عدة قصص وإشعار ومقالات .

1948 وزيارة النائب « دردور »[1] رفقة أحمد بن بلة في جانفي 1949 . . . [2] .

والمعلوم أن مساعي الجزائريين هذه قوبلت بردود أفعال متباينة : فإذا كان السياسيون قد قابلوها باستعلاء إلى درجة أن احدهم لم يتحرج في نعتها بلعب الأطفال فان النشطاء التونسيون اتفقوا مع نظرائهم الجزائريين على التعاون في المجال العسكري ، ولوضع ذلك موضع التنفيذ وتقرر حسب العمودي عقد اجتماعات مشتركة بين الطرفين وبشكل منتظم . وكانت إحدى ثمرات هدا الاتفاق ، إرسال فريق من المختصين في المتفجرات التابعين للمنظمة الخاصة الجزائرية لتدريب التونسيين على صنع القنابل واستعمالها ودلك في ربيع 1949 [3] .

ومن مفارقات التاريخ الغريبة إن التونسيين شرعوا في العمل الثوري مند أواخر 1952 بينما انهمكت الحركة الوطنية الجزائرية في صراع داخلي عقيم . بيد أن هذا لم يمنع الثوريين الجزائريين من مد يد العون لأشقائهم التونسيين . حيث أعيد تشكيل بعض فرق المنظمة الخاصة التي حلت بعد أزمة 1950 وذلك في بعض المناطق كالاوراس وسوق أهراس ، وشرعت في تقديم الدعم للثوار التونسيين ، علاوة على التحاق العديد من الجزائريين بصفوف الثورة التونسية أمثال لزهر شريط ومبروك بن مسعود والعقبي الذي أصبح مسؤولا عن الفداء داخل تونس والعربي القمودي وحمي لخضر والجيلالي بن عمر . . .

وفي 18 أوت 1954 فتحت فرنسا المفاوضات مع التونسيين ، لكنها تميزت بالتماطل والتشدد من الجانب الفرنسي ، إلا أن الوضع سرعان ما تغير مع اندلاع الثورة الجزائرية إذ عمدت السلطات الفرنسية ـ في محاولة منها لتطويق الثورة الجزائرية ـ إلى تسريع تلك المفاوضات لتتوج في شهر جوان 1955 باتفاقيات الاستقلال الداخلي لتونس ، لكن أمام تعاظم الثورة الجزائرية واستمرار جيوب المقاومة التونسية ، عززت فرنسا موقف بورقيبة وأنصاره في مواجهة صالح بن يوسف وأتباعه الذين كانوا يسعون إلى تعميم النموذج الجزائري للمقاومة ، فاستجابت لمطلب الاستقلال التام لتونس في 20 مارس 1956 .

لم يؤد استقلال تونس إلى عزل الثورة الجزائرية ، كما كانت تخطط فرنسا ، بل

(1) دردور عمر : من مواليد 1913 بقرية حيدوس بباتنة تعلم في جامع الأخضر بقسنطينة على يد ابن باديس مارس التعليم انظم إلى الثورة عام 1956 كلف خلال الثورة التحريرية بجمع المساعدات وتوعية الجنود على الحدود الجزائرية التونسية .

(2) سعداوي مصطفى ، المنظمة الخاصة ودورها في الإعداد للثورة المسلحة 1947 / 1954 . ماجستيرغير منشورة جامعة جزائر . 2007 ، ص 190 .

(3) نفس المرجع ، ص 190.

على العكس ترتب عنه خلق قاعدة خلفية لهذه الثورة توفر لها الإسناد اللوجستي ومختلف أشكال الدعم السياسي والدبلوماسي والإعلامي . . . حيث نشطت عمليات تهريب الأسلحة نحو الجزائر والتحق بصفوف الثورة الجزائرية العديد من المتطوعين التونسيين . . . وراحت الأحزاب التونسية تندد بالقمع الاستعماري وتطالب فرنسا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائري ، وجدت الهيئات والمنظمات القومية التونسية (الأطباء والمحامون والمهندسون) في حشد الدعم الجماهيري للثورة الجزائرية ، وتحركت الدبلوماسية التونسية في المحافل الدولية لخدمة القضية الجزائرية . . . علاوة عن الخدمات والمساعدات التي ما فتئت تقدمها تونس حكومة وشعبا للطلبة واللاجئين والجرحى والمساجين الجزائريين . . .

كما اضطلعت الصحافة التونسية بالدعاية لصالح الثورة الجزائرية داخليا وخارجيا ، وامتزجت بها ، واعتبرتها جزءا من نضالها ، وعاشت أحداثها بوعي وعمق يوما بعد أخر واحتفظت لنا بشهادات وذكريات ومواقف وإبداعات ، تجسم صورة من أروع صور التلاحم والتآخي والتآزر بين الشعبين الجزائري والتونسي ، ويقول أحد أعمدة الصحافة التونسية بهذا الصدد : « كان دعمنا للثورة الجزائرية دعما كاملا إذ خصصنا لها ساعة كحصة يومية في الإذاعة التونسية باللغة العربية والفرنسية ، كما أن الصحافة بكل أطيافها ساندتها دون تحفظ وكنا نرى أن لا استقلال لتونس بدون استقلال الجزائر »[1] .

و في الختام نقول إن التواصل النضالي بين تونس والجزائر كان قائما طيلة الاحتلال الأجنبي الذي عجز عن شله وقطع أواصره والتي باتت أعمق بكثير من روابط الأخوة الإنسانية ورابطة الجوار وهي أقوى وأعمق من رابطة التناصر التي ضلت تلتحم التحاما قويا خصوصا في أوقات الخطر ـ أي طيلة قرن ونصف لتثمر في الأخير تحرر البلدين واستقلالهما .

هوامش البحث

1ـ خرفي صالح، شعراء من الجزائر، معهد البحوث و الدراسات العربية 1969.
2 ـ سعداوي مصطفى، المنظمة الخاصة و دورها في الإعداد للثورة المسلحة 1947 / 1954. ماجستير غير منشورة جامعة جزائر. 2007، ص 190.
3 ـ صالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس1900 / 1962 ، تونس : بيت الحكمة ،1991م .
4 ـ الطالب المنكوب : من طلائع الرواية الجزائرية، صدرت سنة 1951 و طبعت بمطبعة الشريف، دار الكتب العربية بتونس.
5 ـ لقاء خاص مع بشير بن سلامة في 2 سبتمبر 2007 بحي المنار بتونس العاصمة.
6 ـ يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية.

(1) لقاء خاص مع بشير بن سلامة في 2 سبتمبر 2007 بحي المنار بتونس العاصمة .